# الباب الثامن

# الجار والمرأة

الفصل الأول : صيانة المرأة الجارة

الفصل الثاني : مكانة الجارة

# الفصل الأول

## صيانةُ المرأة الجارة

قبل أنْ نعرّج علىٰ بابٍ آخر ، وفصولٍ أخرىٰ مِنْ كتابنا هذا ، ألفيتُ ثروةً أدبيةً رائعةً في تاريخنا الوضيء منذُ القِدَم تزخرُ بمكانةِ النّساء ، ودورهن في أدب الجوار ، ولاشكّ في أنَّ هذا الموضوعَ شائقٌ وجميل ، وإن كان شائِكَ البحث ؛ وذلك لصعوبةِ تتبُّع هذه المادة في المصادر الكثيرة والكبيرة والواسعة ، والتي هي أقرب إلىٰ النّدرة لقلّتها ؛ ولكنّ القارىءَ الكريمَ سيجدُ بعض اللمسات الساحرة الآسرة في تاريخ نسائنا الزّاهر في هذا المجال ، كما سيجدُ أخلاقَ العربِ ومكارمهم في صونِ الجارة ، وسيقرأُ ما وصلنا من نفحاتهم في هذا المجالِ اللطيفِ الذي يشيرُ إلىٰ أصالةِ هذهِ الأمةِ ، وإلىٰ خيرِها

ومكانتها بين الأمم الأخرىٰ .

ـ لقد نظرَ العربُ في الأعصرِ الجاهلية إلىٰ المرأة الجارة نظرة ملؤها التوقيرُ والاحترام ، وذلك معرفةً لحرمتها ، فقد تكون المرأة الجارة في كنفِ القومِ أضعف مستجير ، وقد لا يكون لها نصراء ، لهذا كلّه اهتموا بصيانتها وحماية كرامتها ، وامتدحوا ومدحوا مَنْ يحافظ عليها ، ويرعىٰ حقَّ جوارها ، وجوار حقّها ، وكانوا يعدّون هذا من كمالِ المروءةِ ومحاسنِ الأخلاقِ وكريم الشمائل .

ـ ولما أظلَّ الإسلامُ بجناحيهِ الدُّنيا ، ساهم في إثراءِ مكارمِ الأخلاقِ ، وحثَّ علىٰ فضائلِ الأعمالِ ، وأبانَ بشكلٍ أوضح وأكرم حقَّ الجار ، وحقّ الجوار ، وخاصةً حسن جوار المرأة ، فأضحىٰ صون عفّة المرأة الجارة خلقاً كريماً وسلوكاً دينيّاً محموداً .

ـ وقد جاءت في هذا المجالِ الرّحبِ الكريم آثارٌ وأحاديث تحثُّ عليه ، وتجعل الاهتمام بالجارة والمحافظة عليها من فضائل الدِّين ، ومن التكافلِ الاجتماعي .

ـ وعندما تعرّضَ العربُ في نفحاتهم الشعرية المتنوعة ، لم ينسوا أن ينوّهوا إلىٰ حفاظهم علىٰ المرأةِ الجارة وصونها ، واعتبروا ذلك ذِروة مكارمِ أخلاقهم ، وكرم طباعهم ، فالمرأة في جوارهم امرأة حصان ، لا يجرؤ أحدٌ أن يمسَّ سيرتها بسوءٍ ، وكانوا أنفسهم يبتعدون عن مواضع الظنِّ والتُّهمة ، وفي شعر الأعشىٰ أمثلة لذلك حيث يقول :

وجارة جنبِ البيت لا تبغِ سرّها  فإنَّك لا تخفىٰ علىٰ اللهِ خافيا[1]

ـ وعلىٰ الرغم من غرامِ الأعشىٰ بالمرأةِ والزّنىٰ والخمرة ، وعلىٰ الرغم من أنَّ سببَ عشاه[2] هو امرأة ، إلا أنه كان

---

(١) انظر : ديوان الأعشىٰ ( ص ٣٨١ ) .

(٢) منَ الطريفِ هنا ، وتماماً للفائدة أن نشيرَ إلىٰ سبب عشىٰ الأعشىٰ ، واسمه : ميمون بن قيس ؛ ما رواه هو عن نفسهِ أنَّهُ قال :

كنتُ يوماً بمنفوحةَ ـ اسم موضع باليمامة ؛ وهو اليوم منطقة كبيرة في مدينة الرياض بالسعودية ـ حين انتصفَ النهار ، وننتظرُ ورودَ الشاء عليَّ ، فالتفتُّ التفاتة ، فإذا =

يتمسّك بأهداب الأخلاق ، في الحفاظِ علىٰ الجارة ، ويعظم حرمتها إكراماً لجوارها ، واعترافاً بهذا الأدبِ الطيّب فيقول :

ولا تقربنْ جارةً إنَّ سرّها  عليك حرام فانكحنْ أو تأبّدا

ـ وقد كان علماءُ المسلمين وأئمتُهم يحبّون أنْ تنتشرَ مكارمُ الأخلاقِ بينَ النَّاسِ ، وأنْ يتفكّه فيها الناسُ في أنديتهم ، وفي كلِّ مكان ، وخصوصاً الحفاظ علىٰ الجارة ، لما في ذلك من غرس كريم الأخلاقِ في النفوس ، وفي تهذيبها وتربيتها علىٰ مائدةِ الفضائل ، فقد ذكر ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ قصةً تُؤنِسُ المُجالِس وتبهجُ المَجَالِسَ ، فقال: مرَّ

---

= الحوضُ مُترعٌ ، وإذا فيهِ امرأةٌ شابةٌ جميلةٌ حاسرةٌ عن ساقيها وسط الحوض ، فلما رأيتُها راعتني بجمالها ، فألقيتُ منْ يدي الدّلو ، حتىٰ إذا دنوتُ منها ، فتناولتها أهوتْ إلىٰ الأرض ، فأخذت قبضةً من تراب ، فألقت بها في وجهي وعيني ، فأخذني في عينيَّ ألمٌ شديدٌ ، فوضعتُ يدي علىٰ عيني ثلاثة أشهر لا أفتح عيناً ، ثم انكشف عني ، ولم يبقَ من بصري إلا سفافة أعشو بها . ثم إنَّ الأعشىٰ عمي بعد ذلك . ( الممتع في صنعة الشعر للنهشلي ص ١٤٠ ) .

مالك بنُ أنس فقيهُ المدينةِ بقينةٍ تغني شعراً تقولُ فيه :

أنتِ أختي وأنتِ حرمةُ جاري ... وحقيقٌ عليَّ حفظُ الجوارِ
إنَّ للجارِ إنْ تغيبَ غيباً ... حافظاً للمغيب والأسرار
ما أبالي أكانَ للبابِ سترٌ ... مسبلٌ أم بقي بغير سترِ

فوقفَ يستمعُ إليها ثم قال : علموا أهليكم هذا ونحوه[1] .

ـ ومن بديع ما نَصِلُ به إلىٰ ختامِ هذه الفقرة نفثات النساء ، في أحلىٰ ما يُقال في صيانةِ المرأة ، ما قالته الفارعةُ بنتُ شداد ترثي أخاها وتحمد جيرته :

فنعمَ الفتىٰ ويمينُ اللهِ قد علموا ... يحلو به الحي أو يغدو به الغادي
هو الفتىٰ تحمدُ الجيرانُ مشهده ... عند الشتاءِ وقد همُّوا بإخماد[2]

---

(١) انظر : بهجة المجالس وأنس المجالس ( ١/ ٢٩٠ ) .
(٢) للمزيد من موضوع رثاء الشاعرات لإخوتهن ، اقرأ موسوعتنا « نساء في قصور الأمراء » ترجمة « الخِرنق بنت بدر » حيث عقدنا فصلاً مفيداً عن هذا الموضوع وهو مفيدٌ ـ بإذن الله ـ فليراجع .

ـ وقالتِ الهيفاءُ بنتُ صبيحٍ القضاعية ترثي بعلها نوفل بن سمير ، وتشير إلىٰ حسن جواره :

لا يرهبُ الجارُ منه غدرة أبداً  وإنْ ألمَّت أمور فهو كافيها

ـ أما الخنساء ، فتصف صخراً بأنَّ جارَه أو جارته محفوظٌ لا يؤذىٰ :

وجارك محفوظٌ منيعٌ بنجوةٍ  منَ الضَّيمِ لا يُؤذىٰ ولا يتذلّل

* * *

# الفصل الثاني

# مكانةُ الجارة

ـ لم تحظَ الآدابُ العالمية كلّها ، كما حظيَ أدبنا العربي وتراثنا الكريم باحتفائه بمكانةِ الجارة ، والحفاظ علىٰ النساء في الحِلِّ والترحال والغيابِ والحضور .

ـ فالمرأةُ الجارةُ ذاتُ مكانةٍ محفوظةٍ في عالمِ المكارمِ ودنيا الوفاء ، فهي مرعيةُ الجانبِ ، نظيفةُ الشّرفِ ما دامتْ في جوارِ الجارِ الكريمِ الشهمِ ، وهي في صيانةٍ لا يرفعُ إليها طرفه ، بل يكون غضيض الطرف ، لا يتطلع إليها ، أو يطمع في الحديث معها بغش ، ويقوم بحاجتها حسبما تقتضيه الظُّروف .

ـ وتشيرُ الأخبارُ والأشعارُ والحكاياتُ التي وصلتنا عن

العربِ إلىٰ أنَّ الجارةَ كانتْ موفورة العرض في جوارهم ، حصاناً لا تمتدُّ إليها يدُ لامس ، بل إنَّ الجارَ يحافظُ علىٰ عفافها محافظته علىٰ عينيه ، إذ المروءةُ تقتضي ذلك ، وينعىٰ حاتم الطائي ـ وهو الشاعر العربيُّ الجاهلي ـ علىٰ الرجل صاحبِ المروءة والنخوة أنْ يزورَ جارته تحت أستار الظلام ، فقال :

إذا ما بتُّ أختلُ عرسَ جاري ليخفيني الظلامُ فلا خفيتُ
أأفضحُ جارتي وأخونُ جاري معاذَ اللهِ أفعلُ ما حييتُ[1]

ـ وفي شعر حاتم تتجلىٰ الأخلاقُ الفاضلةُ ، والتّرفع عن الدَّناءةِ ، والحفاظ علىٰ المرأةِ الجارة ، حتىٰ لا يختلس نظرة إليها في ضياءٍ أو ظلام ، إلا إنْ كانَ يحملُ هدية :

ولا نطرقُ الجاراتِ مِنْ بعد هجعةٍ منَ الليلِ إلا بالهديةِ تُحْمَلُ[2]

ـ أما أنَّه يمشي ويسلّم عليها فذلك شيءٌ بعيدٌ عن أخلاقه

---

(١) ديوان حاتم ( ص ٢٢٣ ) .
(٢) المصدر السابق ( ص ٢٣٢ ) .

ما دام هناك حمامٌ يغرّد :

فأقسمتُ لا أمشي إلىٰ سرّ جارتي يدَ الدَّهرِ ما دامَ الحمامُ يغرِّدُ

ـ وإذا ما استعرضنا جانبَ جوارِ المرأةِ في تلكم الحقبةِ ، لألفينا كثيراً من الشُّعراء والبُلغاء قد خلّدوا مآثرهم ومكارمهم في أبيات تفصحُ عن وفائهم للجارة ، وترفُّعهم عن كلامها وسؤالها عن رجالها ، أحضور أم غياب ، بل لا يفاجىء الجارة بالوقوف أمام بيتها ، يقولُ عقيل بن عُلَّفة المري في هذا المعنىٰ :

ولستُ بسائلٍ جارات بيتي أغيّابٌ رجالك أم شهود
ولستُ بصادر عن بيتِ جاري صدورَ العير غمّرهُ الورود[1]

ـ وعندما كانتِ الخنساءُ تصفُ أخاها في رثائها ، كانتْ تجعلُ نصيباً من شعرها فيه بذكر مكارم أخلاقه ومكانة الجارة عنده فتقول :

---

(١) شرح ديوان الحماسة ( ١/ ٤٠٠ ) .

لـمْ تَـرَهُ جـارةٌ يمشـي بسـاحتهـا  لريبة حين يُخلي بيته الجارُ[1]

ـ إنَّ العربيَّ الكريمَ الشمائل ، يأنفُ من زيارة الجارة إذا ما كانَ الرجل غائباً لكيلا تجرُّ الأحاديثُ ما لا تُحمد ، ولنستمع إلىٰ أبيات في هذا المضمار ، أوردها ابنُ قتيبة لبشار بن بشر المجاشعي :

وإنّي لعفٌّ عنْ فكاهةِ جارتي  وإنّـي لمشنـوءٌ إلـيَّ اغتيـابهـا
إذا غابَ عنها بعلُها لم أكنْ لها  زؤوراً ولـم تـأنـس إليَّ كـلابهـا
ولم أكُ طلاّباً أحاديثَ سرِّها  ولا عالماً مِنْ أيّ حوكٍ ثيابها
وإنَّ قـرابَ البطـنِ يكفيـك ملـؤه  ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها[2]

ـ وهذا حجر بن حبة العبسي يصرّحُ بأنَّه يعرفُ مكانةَ الجارة ، فلا يسارّها الحديث ، ولا يخبرها همساً دفعاً للـريبـة ، فهـو حسـنُ الجـوار ، عفيـف المعشـر ، يصـون العرض ، وهو لا يخلو بها ، لأن الخلوة بها مآلها إلى

---

(١) ديوان الخنساء ( ص ٤٩ ) .
(٢) عيون الأخبار ( ٣/ ١٨٣ و ١٨٤ ) .

الفساد ، فيقول :

لا أحرم الجارة الدُّنيا إذا اقتربتْ ولا أقومُ بها في الحيّ أخزيها
ولا أكلِّمُهـا إلاّ عـلانيـةً ولا أخبّـرهـا إلاّ أنـاديهـا[1]

ـ وعند شعراءِ العصرِ الإسلامي ، نجد بعض المعاني الكريمة الرائعة لمكانة الجارة ، وذلك في مساحةٍ كبيرة من أشعارهم ، ومنهم كثير عزّة الذي يقول :

نساءُ الأخلاءِ المُصافين مَحْرَمٌ عليَّ وجاراتُ البيوتِ كنائن

ـ ويخصُّ الأحوصُ الأنصاري امرأةَ الصَّديق والجارة بالمكانةِ العليا في مساحة الأخلاق الأدبية فيقول :

ثنتـان لا أدنـو لـوصلهمـا عرسُ الخليلِ وجارةُ الجُنُب
أمـا الخليـلُ فلسـتُ فـاجِعَـه والجـارُ أوصـانـي بـه ربّـي[2]

ـ وكان العربُ يتواصون فيما بينهم ـ وخصوصاً أهل النهىٰ والشرف منهم ـ أن يحافظوا على مكانةِ الجارة بسترها ، وذلك

---

(١) الحماسة ( ٢/ ٣٠٧ ) .
(٢) ديوان الأحوص ( ص ٨٣ ) .

بغضِّ أبصارهم عنها ، فهذا أحد الشعراء يمتدح بعض الكبراء بأنه لايهتك ستر جارته ولا ينظر إليها فيقول :

لا يهتكُ السِّتر عنْ أنثىٰ يطالعها ولا يشـدُّ إلـىٰ جـاراتـهِ النَّظـرُ

ـ ويقول الأبيرد الرياحي في هذا المجال :

وإنْ جارةٌ حلَّتْ إليهِ وفىٰ لها فبانتْ ولمْ يُهتك لجارتهِ سترُ

ـ ولعلَّ حاتمَ الطائي قد ضرب مثلاً شروداً في مكارم الأخلاقِ في الحفاظ علىٰ مكانةِ الجارة ، ومعرفة قدرها وقدر جاره ، فهو لا يزورها إذا ما غاب بعلها ، بل هو يحافظُ علىٰ الودادِ ، وعلىٰ مكانةِ الجوار والجار ، حيثُ يبعث لها بما تحتاجه مع جارته ، وما أجمل مكارم الأخلاق!! ولنستمع إلىٰ إنشاده الرائع في هذا المضمار :

وما تشتكيني جارتي غيرَ أنَّني إذا غابَ عنها بعلُها لا أزورها
سيبلغها خيري ويرجعُ بعلها إليها تُقْصَر عليَّ ستورها[1]

---

(١) ديوان حاتم ( ص ١٠٧ ) .

ـ وأما لبيدُ بن ربيعة فيجعل من جارة ممدوحهِ المكانةَ التي تُغْبَطُ عليها فيقول :

وجـارتـهُ إذا حلَّـت إليـهِ لهـا نفـلٌ وحـظٌّ فـي السَّنـامِ
فـإن تقعـدُ فمكـرمـةٌ حَصَـانٌ وإن تظعـن فمُحسنـةُ الكـلام[1]

ـ إن الأصيل كريم المنبت لا يتغير مهما تغيرتِ الأحوال ، فمعدنُ الكرامة والأصالة لن تخدشه قسوة الأيام ، ووعورة الأزمات ، وستبقىٰ مكانة المرأة هيَ هيَ في الذّروة العليا ، ومكانة الجار في سدّة منيعة ، ويجسّد مسكين الدّارمي هذه المعاني بأبياته السائرة الشهيرة فيقول :

لا يـرهـبُ الجيـرانُ غـدرتنـا حتـىٰ يـواري ذكـرنـا القبـرُ
لسنـا كـأقـوام إذا كَلَحـتْ إحـدىٰ السنيـن فجـارهـم تَمْـرُ
مـولاهـم لحـمٌ علـىٰ وضـمٍ تنتـابـه العِقْبـان والنسـرُ
نـاري ونـارُ الجـار واحـدةٌ وإليـهِ قبلـي تنـزلُ القـدرُ

---

(١) ديوان لبيد ( ص ٢٠٤ ) .

مـا ضـرَّ جـاري إذْ أجـاوره ألا يكـــونَ لبيتـــه سِتْـــرُ
أعمىٰ إذا مـا جارتـي خرجت حتـىٰ يـواري جـارتـي الخـدرُ
ويُصـــمُّ عمـــا كـــان بينهمـــا سمعـي ومـا بـي غيـره وقـرُ[1]

* * *

(١) ديوان مسكين الدارمي ( ص ٤٥ ) .